موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

# مناهج المفسرين

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
**حفظه الله تعالى**

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

**الشيخ لم يراجع التفريغ**

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا، وهو القائل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان].

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله وصفيُّه وخليله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فهذه **الدّورة متخصصة في التفسير وعلوم القرآن**، وإنّ من مباحث هذه الدّورة الكلام علىٰ مناهج المفسرين، والكلام علىٰ مناهج المفسرين مهم؛ لأنّ التفاسير لكتاب الله جلّ وعلا كثرت جدّا حتىٰ بلغت أكثر من مائة من التفاسير الموجودة بين أيدينا اليوم.

والتفاسير المفقودة كثيرة، والتي لم تطبع أيضا كثيرة، وهكذا.

فلابدّ لطالب العلم الذي يحرص علىٰ معرفة معاني كلام الله جلّ وعلا أنْ يعلم مناهج أولئك المفسرين وطرائقهم حتىٰ إذا راجع تفسيرا لأحد أولئك يعلم مع ما يتميَّز به ذلك التفسير ويعلم منهج المؤلف حتىٰ لا يضيع بين كثرة التَّفاسير.

منهج أو مناهج المفسرين المقصود بها الطرائق والخصائص التي يتميز بها التفسير، فـ: (مناهج) جمع منهج، والمنهج هو الطريق الملتزم، **المنهج والنّهج هو الطريق الملتزم**؛ يعني أنّ مناهج المفسرين هي الطرق والشروط التي اتبعوها في تفاسيرهم.

والمناهج هذه متنوعة متعددة، والمفسرون منهم من يذكر شرطه في تفسيره ومنهم من لا يذكر ذلك، فإذا كانت المناهج هي الطرق التي سلكها المفسر في تفسيره فأصبحت قواعد له في التفسير أو أصبحت مميزات وخصائص له في تفسيره.

هذه المناهج كيف نعلمُها؟ كيف نعلم منهج ابن جرير مثلا في تفسيره؟ أو منهج القرطبي في تفسيره؟ أو منهج ابن كثير في تفسيره؟ إلىٰ آخر تلك التفاسير.

لمعرفة المنهج أحد طريقين:

**الطريق الأول**: أن ينص المفسر علىٰ شرطه في التفسير في أول تفسيره، أو أن ينص عليه في مواضع متفرقة من تفسيره مع خطبة الكتاب، فإذا نص علىٰ شرطه كما نص ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ شرطه وطريقته في أول التفسير، وكما نص القرطبي علىٰ ذلك بوضوح حيث قال: وشرطي فيه أني كذا وكذا. وكما نص عليه أبو حيان الأندلسي في كتابه «البحر المحيط»، وهكذا في عدد من التفاسير ينص المفسر علىٰ شرطه في تفسيره، فإذا نص المفسر علىٰ شرطه في تفسيره صارت تلك الشروط المنصوصة منهجًا له، فنقول: منهجه في التفسير كذا وكذا بناء علىٰ شرطه الذي نص عليه في تفسيره.

**والطريق الثانية**: أن يُعلم شرطه في التفسير ويعلم المنهج عن طريق الاستقراء والاستقراء كما هو معلوم قسمان:

- استقراء تام أو أغلبي.
- و النوع الثاني استقراء ناقص.

والاستقراء حجة إذا كان تاما أو أغلبيا؛ لأنه يكون دالا علىٰ صحة ما بُحث بالاستقراء، فإذا استقرأ أحد أهل العلم تفسيرا من التفاسير وقسّم طريقه ذلك المفسر: في العقيدة يسلك هذا الطريق، وفي الحديث والأثر يسلك هذا الطريق، وفي النحو يسلك هذا الطريق، وفي الإسرائيليات يسلك هذا الطريق، واستقرأ ذلك استقراء تاما بتتبع التفسير من أوله إلىٰ آخره أو استقرأه استقراء أغلبيا، فنقول هنا: منهجه في التفسير كذا وكذا.

أما إذا كان الاستقراء ناقصا فتش في التفسير صفحة أو صفحتين أو ثلاثة أو مجلد أو مجلدين ولم يستقرأ التفسير بتمامه، فلا يجوز أن يعتمد علىٰ ذلك الاستقراء الناقص، ويقال: طريقة فلان في التفسير كذا أو طريقة التفسير الفلاني كذا، إذْ لابدّ لكون الاستقراء حجة أن يكون استقراء تاما أو أغلبيا كما هو مقرر في موضعه من علم أصول الفقه.

وهذا وهَذا وجد شروط ومناهج للمفسرين عرفنا تلك المناهج عن طريق شرط المؤلف أو عن طريق الاستقراء التام أو الأغلبي، وإذا لم يمكن الاستقراء ولم يوجد الشرط فنستعمل عبارة أخرىٰ غير منهج المفسر في تفسيره كذا وكذا؛ نقول: تميّز التفسير الفلاني بكذا وكذا، تميز تفسير فلان بكذا وكذا، من خصائص التفسير الفلاني كذا وكذا، مثلا من خصائص «الدر المنثور» كذا وكذا، تميز «الدّر المنثور» بكيت وكيت من الطريقة.

فإذن نعدل عن استعمال لفظ (المنهج) إلىٰ لفظ (المميزات والخصائص) إذا لم يكن مشروطا أو إذا لم يكن مستقرأ استقراء تاما أو أغلبيا.

والنبي ﷺ أُنزل عليه القرآن علىٰ سبعة أحرف، فثبت عنه بالتواتر عليه الصلاة والسلام أنّه قال: «**أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف**»، ونزوله -أي القرآن- علىٰ سبعة أحرف عَليه عليه الصلاة السلام فإنه ذلك يستفاد منه في التفسير فوائد كثيرة.

والنبي ﷺ لم يُنقل عنه من التفسير الشيء الكثير، وإنما نقل عنه تفسير كثير من الآيات ولكنه ليس بالأكثر.

والصحابة رضوان الله عليهم نقل عنهم من التفسير أكثر مما نقل عن النبي ﷺ.

فالنبي ﷺ فسّر آيات كثير بحسب الحاجة:

ففسر مثلا قوله جلّ وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦] بأنّ الزيادة هي النظر لوجه الله الكريم جلّ وعلا.

وفسر قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة]، بأن المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارىٰ.

وكذلك فسر ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠] بأنّ القوة الرمي ففي

الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**ألا إنّ القوة الرمي ألا إنّ القوة الرمي**».

وهكذا في أشياء من هذا القبيل، كما فسر الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله جلّ وعلا: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[البقرة:١٨٧] بأنّ الخيط الأبيض والخيط الأسود هما سواد الليل وبياض الصبح أول ما ينفجر.

الصحابة كانوا يهابون أنْ يسألوا رسول الله ﷺ عن التفسير، وكانوا يعلمون أكثر معاني كلام الله جلّ وعلا:

وذلك لأنّهم رضي الله عنهم شهدوا التنزيل، ومشاهدة التنزيل ومعرفة أسباب النزول تورث العلم بمعاني الآيات، كما هي القاعدة عند أهل العلم أنّ معرفة السبب يورث العلم بالمسبَّب.

ثانيا الصحابة رضوان الله عليهم في عهده عليه الصلاة والسلام كانوا يرتحلون معه، يغزون معه يجاهدون معه، ويسمعون كلامه عليه الصلاة والسلام من جهة السنة، فالسنة مفسرة للقرآن.

كذلك ما يعلمونه من تنوع الأحرف، وأنّ هذه الآية أتىٰ تفسيرٌ لها في الحرف الآخر من القرآن، أو أتىٰ تفسيرها في موضع آخر من القرآن.

كما نقول مثلا في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة:٢٢٢]، في أولها قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ هنا هل يُكتفىٰ في جواز إتيان المرأة الحائض أن تطهر أم لابدّ أن تغتسل؟ لا بد لهذا من تفسير، في القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

في شواهد كثيرة لذلك؛ يعني أن القرآن يفسر بعضه بعضا، والقرآن منه الأحرف السبعة التي أُنزلت علىٰ النبي ﷺ، ومن الأحرف السبعة القراءات السبع المعروفة والعشر التي بقيت في الأمة من مجموع الأحرف السبعة.

فإذن القرآن يفسر بعضه بعضا، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرجعون الآية التي يحتاجون إلىٰ تفسيرها إلىٰ موضع آخر أو إلىٰ قراءة أخرىٰ فيتضح المعنىٰ لهم وهم أهل تدبرٍ للقرآن؛ لأنهم امتثلوا قول الله جلّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء].

بعد عهده عليه الصلاة والسلام كثُر التابعون واحتاج الناس إلىٰ أن يُفَسَّر لهم القرآن، وسبب زيادة التفسير في عهد الصحابة عن عهد النبي ﷺ أنّ الحاجة إليه دعت، وذلك أنّ الصحابة مع النبي ﷺ كانوا يشهدون التنزيل ويعلمون كثيرا من السنة ويعلمون القرآن والأحرف، وذلك بخلاف زمن التابعين؛ فإنهم كانوا أقل في ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم، فلذلك احتاج من بعدهم إلىٰ أن يفسِّر الصحابة لهم ذلك.

أيضا من المهمّات في التفسير التي تميز بها الصحابة رضوان الله عليهم في عهده عليه الصلاة والسلام وبعد عهده العلم بلغة العرب؛ لأنّ القرآن أُنزل بلسان عربي مبين، ومن سُبل فهم هذا القرآن أن يكون المتدبِّر له علىٰ علم بلغة العرب، فلغة العرب سبيل فهم القرآن؛ لأنّ القرآن جاء بلسان العرب قال جلّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤]، فاللسان يبيِّن المعنىٰ معنىٰ

الكتاب معنىٰ ما أنزل الله جلّ جلاله، ولهذا يحتاج الصحابة إلىٰ معرفة موارد الكلمة في القرآن في لغة العرب، فيفسرونها بما دلت عليه في اللغة.

وعمر رضي الله عنه -علىٰ سبيل المثال في ذلك- لما كان يتلو سورة النحل في يوم الجمعة علىٰ المنبر وقف مرّة عند قوله جلّ وعلا: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[النحل]، فقال عمر: ما التخوف؟ كأنّه أشكل عليه معنىٰ التخوف في هذه الآية، فقام: رجل من المسلمين فقال له: يا أمير المؤمنين (التخوف) في لغتنا التنقص قال شاعرنا أبو كبير الهذلي:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تَامِكًا قَرِدًا  كما تَخَوَّف عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

وابن عباس رضي الله عنه يقول: كنت لا أعلم معنىٰ ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١) حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. يعني ابتدأتها قبله ففهم منها معنىٰ ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني ابتدأهما علىٰ غير مثال سابق لهما.

وابن عباس له في الاحتجاج بالشعر وباللغة الميدان الواسع، وبمطالعة قصته مع نافع بن الأزرق وصاحبه وأسئلة ذينك الرجلين لابن عباس يتضح هذا، فإنهما رأيا ابن عباس رضي الله عنهما -يعني عن ابن عباس وعن أبيه- يفسر القرآن ولا يسأل عن آية حتىٰ يفسرها، وهو في ذلك حري لدعاء النبي ﷺ له بذلك، فقال نافع لصاحبه: قم بنا إلىٰ هذا الذي يجترئ علىٰ تفسير القرآن، نسأله عن مَصَادِقِهِ من لغة العرب، فأتيا ابن عباس فقالا له: يا ابن عباس إنّا سائلوك عن آيٍ من القرآن لتخبرنا بمعناها، علىٰ أن تبين لنا مصادق كلامك من كلام العرب. فقال: اسألا عما بدا لكما. قالا: ما معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]- في سورة المائدة- ما الوسيلة هنا؟ فقال ابن عباس: الوسيلة الحاجة. فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم ألم تسمعا إلىٰ قول عنترة:

إنّ الرجال لهم إليك وسيلة  أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

قالا: فما معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾[المعارج]، ما العزون؟ فقال ابن عباس: العزون الجماعات في تفرقة. جماعة هنا وجماعة هنا وجماعة هنا. فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ -وهما يسألانه ليس للاستفادة من ابن عباس ولكن ليُحرجاه- قال: نعم ألم تسمعا إلىٰ قول الشاعر:

فجاءوا يُهرعون إليه حتىٰ  يكونوا حول منبره عزينا

واحتجاج الصحابة في التفسير بلغة العرب كثير في ذلك.

فإذن يكون عندنا هنا أنّ مصادر الصحابة رضوان الله عليهم في التفسير عدة:

- فمن مصادرهم في التفسير القرآن بأحرفه السبعة وبالقراءات؛ لأنّ القرآن يفسر بعضه بعضا؛ لأنه

(١) سورة: الأنعام؛ الاية (١٤)، يوسف؛ الآية (١٠١)، إبراهيم؛ الآية (١٠)، فاطر؛ الآية (١)، الزمر؛ الآية (٤٦)، الشورىٰ؛ الآية (١١).

مثاني.

- ومن مصادر الصحابة في التفسير السنة فإنّ النبي ﷺ فسر لهم آيا تنصيصا وسنته تفسر لهم آيات كثيرة من القرآن لا علىٰ وجه التنصيص.
- كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة أسباب النزول، لهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من آية أنزلت إلا وأنا أعلم متىٰ أنزلت وأين أنزلت، والله لو أنّ أحدا علىٰ ظهر الأرض عنده علم بالقرآن ليس عندي تبلغه المطي لرحلت إليه. وابن مسعود كان من أعلم الصحابة بأسباب النزول، وهكذا غيره.

فمن مصادر التفسير عند الصحابة أنهم كانوا يعلمون أسباب النزول.

- كذلك معرفتهم بلغة العرب فإنهم كانوا أهل علم باللسان العربي كما ذكرنا لكم شواهد ذلك.
- كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة رضوان الله عليهم العلم بأحوال العرب؛ لأنّ القرآن نزل يفصل أحوال الناس، ففيه حديث عن العرب، فيه حديث عن مشركي العرب، فيه حديث عن أهل الكتاب، فيه حديث عن أنكحة العرب، فيه حديث عن بيوع العرب، فيه حديث عن علاقات القبائل بعضها ببعض، وهكذا في أشياء شتىٰ فالعلم بأحوال العرب، العلم بتاريخ العرب، بقصص العرب هذا يورث العلم بمعاني القرآن مثلا في قول الله جل وعلا: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾[البقرة:١٨٩]، أمر بإتيان البيوت من الأبواب وترك الإتيان للبيوت من ظهرها، بمعرفة تاريخ العرب وحال العرب في ذلك نعلم معنىٰ هذه الآية، كذلك فيما يتعلق بالأنكحة، كذلك فيما يتعلق بأحوال البيوعات والتجارات التي كانت عند العرب، وهكذا في أنحاء شتىٰ.

فمن مصادر التفسير عند الصحابة؛ يعني من مراجع الصحابة في التفسير العلم بأحوال العرب التي كانوا عليها، فإنّ من لم يعلم أحوال العرب كانوا عليها في عقائدهم وفي دياناتهم وفي تعبداتهم وفي علاقاتهم الاجتماعية وفي تجاراتهم إلىٰ آخر هذه الأحوال فإنّه لن يُحسن التفسير؛ لأنه سيجعل التفسير يناسب قوما آخرين غير الأوائل، والقرآن نزل للأولين والآخرين ومعرفة السبب يورث العلم بالمسبب، والعبرة -كما هو معلوم- بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ ولكن لابدّ من معرفة ما تشتمل عليه الآية أولاً ويدخل فيها من جهة المعنىٰ من باب الأولية.

- كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة سؤال بعضهم بعضا، فإنّ ابن عباس سأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ في قول الله جلّ وعلا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التحريم:٤]،فسأل ابن عباس عمر رضي الله عنهما أجمعين

فقال: من المرأتان اللتان تظاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: عائشة وحفصة.

فالصحابة يسأل بعضهم بعضا عن التفسير، فصار من مصادر التفسير عند الصحابة سؤال بعضهم بعضا، فيسأل الصغير الكبير، ويسأل من لا علم عنده من عنده علم.

فصار عندهم احتجاج في التفسير بالقرآن وبالسنة وباللغة وكذلك بأقوال الصحابة، إلىٰ تفاصيل في ذلك يضيق المقام عن بسطها.

الصحابة رضوان الله عليهم توسّعوا في التفسير وكان من مشاهيرهم في التفسير:

**عبد الله بن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وكانت ولادته في شِعْب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له النبي ﷺ عدة مرات بأنْ يعلمه الله التأويل وأنْ يعلمه الفقه؛ فقال: «**اللّهمَّ فقّهه في الدين**»، وقال: «**اللّهمَّ علمه الحكمة**»، وقال: «**اللّهمَّ علمه التأويل**» في حوادث مختلفة وفي رواية مجتمعة قال: «**اللّهمَّ فقّهه في الدين، وعلمه التأويل**»، فبرز ابن عباس في التفسير كثيرا.

وكذلك **عبد الله بن مسعود**.

وكذلك **عائشة**.

وكذلك **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهؤلاء الخمسة يكثر النقل عنهم في التفسير: ابن عباس وابن مسعود وعائشة وعمر وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

تميّزت تفاسير الصحابة بأشياء:

♦ فمما تميزت به تفاسير الصحابة أنّها تفاسير اشتملت علىٰ الألفاظ القليلة والمعاني الكثيرة، ولهذا من أتىٰ بعدهم فإنما يحوم حول كلام الصحابة، ولهذا قال ابن رجب في كتابه «فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» قال: كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة. فمما يظهر لكَ في تفاسير الصحابة أنّها كلمات قليلة ولكن تحتها المعاني الكثيرة.

♦ ثانيا تميزت تفاسير الصحابة بأنها سليمة من البدع، سليمة من الضلال في الاعتقاد؛ لأنهم أئمة المتقين وأئمة السلف وإليهم المرجع في التوحيد والعقيدة، فتفاسيرهم مضمونة لا غلط فيها ولا إشكال فيها، فمن أخذها فهو يأخذ مطمئنا، فأما تفاسير من بعدهم فحصل فيها الانحراف بقدر ما عند من بعدهم.

♦ من مميزات تفاسير الصحابة أن تفاسيرهم يكثر فيها اختلاف التنوع ويقلّ فيها اختلاف التضاد، واختلاف التنوع معناه أنْ يكون يعبّر عن تفسير الآية بشيء هو من مفرداتها لا بشيء كلي يشمل جميع المعاني ولكن ببعض مفرداتها، كما فسروا مثلا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1] فسره بعضهم بالقرآن، وفسره

---

(١) سورة: الفاتحة؛ الآية (٦)، الصافات؛ الآية (١١٨).

بعضهم بالسنة، وفسره بعضهم بالإسلام، وهذه من اختلافات التنوع لأنّ القرآن والسنة والإسلام بعضها يدل علىٰ بعض، ولا يتصور قرآن بلا سنة أو سنة بلا إسلام، وهذا يسمىٰ من اختلاف التنوع في مباحث هذا العلم وهو اختلاف التنوع واختلاف التضاد فصلها الشيخ تقي الدين ابن تيمية في رسالته؛ في أصول التفسير.

بعد زمن الصحابة تكونت مدارس، لا شك أنّ كل صحابي له تلامذة أخذوا عنه:

فابن مسعود في الكوفة له تلامذة أخذوا عنه التفسير.

وابن عباس في مكة له تلامذة أخذوا عنه التفسير.

فمثلا من تلامذة ابن مسعود عبيدة السلماني والربيع بن خثيم في غيره من علماء التابعين في التفسير، من تلامذة ابن مسعود في التفسير سعيد بن جبير وعكرمة وطاوس وغير أولئك.

فإذن الصحابة الذين فسروا القرآن وكذلك علي في المدينة كلٌّ منهم صار له تلامذة أخذوا عنه التفسير.

من أبرز تلامذة ابن عباس في التفسير مجاهد بن جبر أبو الحجاج، وقد عرض التفسير علىٰ ابن عباس ثلاث مرات؛ عرض القرآن من أوله إلىٰ آخره يسأل ابن عباس عن التفسير، فيجيبه ابن عباس عن التفسير، ولهذا قال عدد من أئمة السلف: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. لأنّ مجاهدا رَحِمَهُ اللَّهُ عرض التفسير علىٰ ابن عباس ثلاث مرات كما ذكرت.

هذه المدارس صار فيها نوع اختلاف، مدرسة ابن مسعود فيها اختلاف عن مدرسة ابن عباس، من أوجه الاختلاف مثلا أنّ ابن مسعود كان ينحىٰ كثيرا في التفسير منحىٰ التفسير بأسباب النزول وبالقراءات، ابن عباس كان ينحىٰ كثيرا في التفسير بالسنة وباللغة العربية بالاجتهاد، فهنا توسّع صارت هناك مدرسة ومدرسة، كلّ مدرسة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها.

بعد التابعين أتىٰ تبعُ التابعين، فتوسّعوا أيضا في التفسير، ومن ثمّ بدأ تدوين التفسير بدأت كتابة التفسير، كان التفسير ينقل حفظا؛ ينقله الصحابة عن بعض الصحابة، ينقله التابعون عن الصحابة عن النبي ﷺ، ثم نقله تبع التابعين عن التابعين عن الصحابة، ثم ابتدأ تدوين التفسير فبدأ هناك من يصنف في التفسير؛ كما صنف السُّدِّي تفسيره -أعني به السُّدِّي الكبير إسماعيل بن عبد الرَّحمٰن وصنّف أيضا عبد الرَّحمٰن بن زيد بن أسلم تفسيره، وهكذا في غيرهم.

هذه الكتابات في التفسير انتقلت علىٰ شكل كتب، ثم توسعت الكتابة في التفسير إلىٰ أن وصلنا إلىٰ تفاسير جمعت المأثور عن الصحابة وعن التابعين عن تبع التابعين في التفسير بالإسماع، مثل تفسير عبد بن حميد، تفسير عبد الرزاق، تفسير عبد الرزاق مطبوع وتفسير عبد بن حميد لم يطبع، ومثل تفسير الإمام أحمد، ومثل تفسير ابن أبي حاتم، ومثل تفسير ابن جرير الطبري.

هذه التفاسير دَوَّنَت تفاسير الصحابة بالأسانيد هذه المدرسة تسمىٰ **مدرسة التفسير بالأثر**؛ يعني المدرسة التي يفسِّر فيها المفسر بناء علىٰ ما ينقله من كلام السلف علىٰ الآية، فينقل بإسناده عن الصحابة، ينقل بإسناده عن التابعين في تفسير الآيات، ولا تجد في تلك التفاسير الكثير التفسير الخارج

عن تفاسير السلف.

هناك في خضم هذه الفَترة -يعني إلىٰ نهاية القرن الثالث تقريبا- ابتدأت كتابات مختلفة فيها تفسير القرآن بالنحو؛ لأنّه نشأت مدارس نحوية، نشأت مدرسة نحاة البصرة -سيبويه ومن معه-، ونشأت مدرسة نحاة الكوفة، ثم بعد ذلك نحاة بغداد إلىٰ آخره، والنحو معتمد علىٰ القرآن، والمدرسة النحوية يؤثر نظرُها في النحو في التفسير، فصار هناك رأي في التفسير من جهة النحو، ورأي في التفسير من جهة اللغة، فصُنِّفت عدة مصنفات؛ كـ«معاني القرآن» للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، وكذلك مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ، في كتب علىٰ هذا النحو.

أتىٰ هنا ابن جرير وهو إمام المفسرين فصنف كتابه «جامع البيان»، وهو أعظم كتاب أُلِّف في تفسير القرآن بالإجماع، وبه عُدّ ابن جرير إمام الأئمة في التفسير وهو محمد بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ المولود سنة أربع وعشرين ومائتين (٢٢٤هـ) والمتوفىٰ سنة عشر وثلاثمائة (٣١٠هـ) صنف التفسير وجمع فيه ما تكلم عليه العلماء قبله في التفسير، غلب عليه الأثر ولكنه اعتنىٰ بالتفسير بالنحو والتفسير باللغة؛ يعني أنّ تفسيره صار فيه غلبة لمدرسة التفسير بالأثر؛ ولكن المدرسة الأخرىٰ في التفسير بغير الأثر وسيأتي تسميتها وتعريفها، هٰذه لها ...ونعني بالتفسير بالأثر كما ذكرت لك أن يفسر القرآن بنقل المفسر كلام السلف في التفسير بالأسانيد، أو يقول: قال ابن عباس في تفسير هٰذه الاية كذا، وقال مجاهد كذا وقال قتادة كذا وقال ابن مسعود كذا، إلىٰ آخر ما هنالك، هٰذه تسمىٰ مدرسة التفسير بالأثر.

المدرسة الأخرىٰ التي التي حدثت هي مدرسة التفسير بالرأي.

ومدرسة التفسير بالأثر كانت قبل ابن جرير وبعد ابن جرير، فمن تفاسير العلماء التي تنتمي إلىٰ مدرسة التفسير بالأثر كما ذكرت لك «تفسير عبد الرزاق» و«عبد بن حميد» و«الإمام أحمد» و«ابن أبي حاتم» و«ابن جرير» ثم بعده «البغوي» و«ابن كثير» و«الدر المنثور» إلىٰ غير ذلك.

**مدرسة التفسير بالرأي** حدثت و مدرسة التفسير بالرأي اُختلف في تعريف الرأي فيها، ما معنىٰ التفسير بالرأي؟

ويجمعها أن يقال: التفسير بالرأي معناه التفسير بالاجتهاد والاستنباط.

والاجتهاد الذي عمِله أصحاب هذه المدرسة قسمان:

- اجتهاد محمود.
- واجتهاد مذموم مردود علىٰ صاحبه.

وقد جاء عن النبي ﷺ في غير ما حديث حسَّنَها بعض أهل العلم وضعفها آخرون أنّه قال: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»، وفي لفظ قال: «**من فسّر القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب**» ففيه ذمٌّ للتفسير بالرأي؛ ***٥٥ لأنّ في الأول أنّه إن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، وفي الثاني أنه إن فسر القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب، قال العلماء: هذا محمول علىٰ المعنىٰ التالي: وهو أنّ التفسير بالرأي إذا كان عن هوىٰ وعن انحراف فإنّه يكون تفسيرا برأيٍ يتبوأ صاحبه مقعده من النار. فحملوا قوله عليه الصلاة والسلام «**من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار**» لمن قال في القرآن برأيه الذي نشأ

عن هوىٰ لا عن أدلة صحيحة كما قدمنا؛ لأنّ الصحابة اجتهدوا في التفسير وقالوا في التفسير بأشياء لم ينقلوها عن النبي ﷺ، فإذا قلنا: إنه يُذم جميع أنواع التفسير بالرأي -يعني بالاجتهاد والاستنباط- فإذن يُذم الصحابة علىٰ اجتهادهم في التفسير، وهذا باطل قطعًا.

فإذن يكون قوله عليه الصلاة والسلام: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» محمول علىٰ من قال في القرآن برأيه الذي نشأ عن هوىٰ، كقول أهل الفرق المنحرفة والفرق الباطلة؛ كقول المرجئة والقدرية في القرآن وكقول الخوارج وقول المعتزلة وقول الأشاعرة وأشباه هذه الأقوال في القرآن.

فمن قال في القرآن برأيه وحمل معاني القرآن علىٰ رأي حَدَثَ -بالإجماع بعد زمن النبوة بمائة سنة أو أكثر- فإنّه متوَّعد بأن يتبوأ مقعده من النار، أما قوله عليه الصلاة والسلام: «**من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ وإنْ أصاب**» قال العلماء معناه: من قال في القرآن برأيه وكان رأيه عن جهل لا عن علم فوافق الصواب اتفاقا ولم يأت بالصواب عن علم ويقين؛ عن علم وبينة.

مثلا واحد يفسر القرآن هكذا بمِزاجه بما يطرأ في ذهنه يظهر له معنىٰ للآية فيفسر، فهذا وإن أصاب -الصواب في التفسير- لكنه أخطأ ومتوعد لأنه تجرأ علىٰ القرآن وفسره بغير علم.

فإذن مدرسة التفسير بالرأي لها اتجاهان:

↖ من أهلها من فسّر القرآن بالرأي الناشئ عن هوىٰ، كما فسرت المعتزلة بآرائهم وأهوائهم، وكما فسرت الخوارج والإباضية والرافضة القرآن بآرائهم وأهوائهم، وكما فسر الأشاعرة والماتريدية القرآن بآرائهم وأهوائهم، وتركوا تفاسير السلف إلىٰ تفاسير محدثة، فهؤلاء مذمومون؛ لأنهم فسروا القرآن برأي لا دليل عليه ولا حجة فيه، وإنما نشأ ذلك التفسير عن هوىٰ منهم في ذلك التفسير، فهذا رأي مذموم ومردود علىٰ صاحبه.

وتمثله عدة تفاسير من التفاسير المعروفة التي ينتمي أصحابها إلىٰ شيء من الفرق التي ذكرت لكم بعضها.

↙ **القسم الثاني** من مدرسة التفسير بالرأي: الذين فسروا القرآن بالاجتهاد والاستنباط وكان اجتهادهم واستنباطهم صحيحًا، وهذا إنما يسوغ إذا كمَّل المفسر شروط جواز التفسير بالاجتهاد والاستنباط، وقد تُجمع الشروط التي بها يجوز للمفسر أن يفسر القرآن بالاجتهاد والاستنباط فيما يلي:

**الشَّرط الأول**: أن يكون عالما بعقيدة السلف وبالتوحيد؛ لأن العلم بذلك به يأمن المفسر من أن يفسر القرآن عن هوىٰ أو علىٰ نحو من أراء المعتزلة أو الجهمية أو الخوارج أو القدرية أو المرجئة إلىٰ آخر تلك الفرق.

**الثاني**: أن يكون عالمًا بالقرآن يمكنه أن يفسر القرآن بالقرآن، حافظا للقرآن أو يستطيع أن يرد المتشابه في موضع إلىٰ المحكم في موضع، وحبذا لو كان عنده علم بالقراءات.

**الثالث**: أن يكون عالمًا بالسنة حتىٰ يجتهد في آية التفسير فيها منقول عن النبي ﷺ.

**الرابع**: أن يكون عالما بأقوال الصحابة حتىٰ لا يخترع تفسيرًا ويُظهر تفسيرا الصحابة علىٰ خلافه، وباليقين أنّ التفسير الذي أُحدث والصحابة علىٰ خلافه نقطع ببطلانه، وابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المهتمين

بهذا، فمثلا عند قوله جلّ وعلا في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠]، نقل عن الصحابة والتابعين أنّ المراد هنا بالضمير في الآية آدم وحواء، قال: ونُقل عن الحسن أنّه قال: المراد بهم اليهود والنصارىٰ. -يعني من جهة الجنس- قال: وهذا القول باطل وإنما حكمنا ببطلانه لإجماع الحجة من الصحابة علىٰ خلافه فيكون القول به محدثا علىٰ خلاف أقوال الصحابة.

وهذا من المهم للمفسر أنْ يرعَ أقوال الصحابة حتىٰ لا يحدث قولا بخلاف أقوال الصحابة؛ لأننا نجزم أنّه لا يمكن أن يكون ثَمّ تفسير يغيب عن الصحابة البتة ويكون عند من بعدهم؛ لأنّ الصحابة هم أولىٰ بإدراك الصواب.

فإذا كان تفسير الآية لا يُعرف عند الصحابة والصحابة يفسرون بخلاف هذا التفسير الذي اجتهد فيه صاحبُه أو استنبطه فإنه نجزم بأنّ هذا التفسير غلط فالحق لابدّ أن يكون محفوظا في الصحابة؛ لأنّهم أهل العلم بالقرآن وأوْلىٰ من يعلم القرآن.

[**الخامس**]: أيضا أن يكون عالما بأحوال العرب -كما ذكرنا- حتىٰ لا ينزل آيات القرآن علىٰ غير تنزيلها.

[**السادس**]: كذلك أنْ يكون عالما باللغة العربية؛ في نحوها وفي مفردتها وفي صرفها وفي علم المعاني من علوم البلاغة، وهذا العلم الأفضل أن يكون بالقوة الذاتية يعني بالعلم الذاتي في نفسه وإن كان بالقوة القريبة يعني بالمراجعة والكتب فلا بأس إذا استقامت له أصوله.

وهناك شروط أخر ذكرها طائفة من أهل العلم.

المقصود من هذا أن لا يجترئ من يظن نفسه يحسن التفسير علىٰ التفسير بالاجتهاد والاستنباط ولم تكتمل عنده آلاتُه؛ لأنّ القول في التفسير شديد ولهذا حرّم جماعة من السلف القول في القرآن بالاجتهاد، وقالوا: لا نفسر القرآن إلا بالنقل عن الصحابة، وبعد الصحابة ليس لأحد حق في أن يفسر القرآن. وهو مذهب جماعة قليلة من التابعين.

هذه المدرسة مدرسة التفسير بالرأي بقسيمها -الرأي المحمود والرأي المذموم- يمكن أن نُجمل التفاسير التي تنتمي لهذه المدرسة إلىٰ أربع مدارس كبرىٰ؛ وذلك لأنّ التفسير بالرأي أكثر بكثير جدا من التفسير بالأثر، التفاسير التي تنقل بالأثر قليلة بالنسبة للتفاسير التي تفسر بالرأي، التفاسير بالرأي يأتينا الآن في المدارس بيان تلك التفاسير، فلها عدة مدارس:

① الأول في التفسير بالرأي مدارس **فسرت القرآن بالنظر إلىٰ العقائد**، وهذه متنوعة، فكل أصحاب عقيدة عانوا تفسير القرآن علىٰ حسب اعتقادهم.

**فالرافضة** لهم تفاسير في القرآن «تفسير الطبرسي» و«تفسير الطوسي» وهلمّ جرا.

**المعتزلة** فسروا القرآن، يريدون بذلك أن يبثوا عقائدهم في تفسير القرآن، في أغراض معلومة من طالع أوائل كتب التفاسير التي تفسر علىٰ هذا النحو عَلِم ذلك.

**الخوارج** لهم تفاسير علىٰ هذا النحو.

**الأشاعرة** لهم تفاسير كثيرة علىٰ هذا النحو مثل «تفسير القرطبي» ومثل «تفسير أبي السعود» ومثل «تفسير الرازي» وأشباه هذه التفاسير.

**الماتريدية** أيضا لهم تفاسير مثل «تفسير النسفي» وتفسير الآلوسي «روح المعاني» وغير هذه التفاسير.

هذا قسم، فسروا القرآن من جهة العقيدة، وقد يكون لهم اعتناء بأشياء أخر يكون لهم اعتناء بالفقه لهم اعتناء باللغة إلىٰ آخر ذلك؛ لكن لهم اعتناء بالعقيدة يعني بثُّوا العقائد في التفسير، وكان لهم همٌّ في أن يقرِّروا عقائدهم في كتب التفسير.

② **المدرسة الثانية** المنتمية إلىٰ مدرسة التفسير بالرأي: **مدرسة التفسير الموسوعي**، التفسير الموسوعي نعني به الذي لم يشترط صاحبُه في تفسيره علىٰ نفسه نوعا من أنواع علوم التفسير، ولكنه طرق كلّ علم من علوم التفسير، فتجده يفسر القرآن بالأثر، ويفسره بأسباب النزول، ويفسره باللغة، ويفسره بالأحكام الفقهية، ويفسره بالأحوال العامة بالعلوم المختلفة -بالتاريخ، بالفلك، بالرياضيات إلىٰ آخره- كل علم عنده يدخله في التفسير، هذا يسمىٰ التفسير الموسوعي، ومن أشهر التفاسير التي تنتمي إلىٰ هذه المدرسة «تفسير مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازي وتفسير الآلوسي «روح المعاني»، فإنهم جمعوا فيها كل شيء، حتىٰ قيل عن تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير.

وهذه المدرسة تمتاز بكبر تفاسيرها فمثلا «تفسير الرازي» اثنين وثلاثين جزءا و«تفسير الألوسي» ثلاثين جزءا كبيرا.[1]

③ المدرسة الثالثة: **التفاسير اللغوية النحوية**، وهذه يعتني أصحابها بالنحو، بالإعراب باللغة بالاستقاء وهذا مثل تفسير أبي حيان الأندلسي «البحر المحيط» ومثل «إعراب القرآن» للنّحاس وأشباه هذه الكتب.

④ القسم الرابع والأخير: **التفاسير الفقهية** وهي **الموسومة بتفاسير أحكام القرآن**؛ لأنهم جعلوا همهم في التفسير أن يقرروا أحكام القرآن، وذلك لأنهم يكونون في الغالب يكونون فقهاء، والفقيه يعتني بعلمه فإذا فسر القرآن يأتي علمه الذي برز فيه في التفسير، فتجده يطيل أو يعتني بآيات الأحكام أو الآيات التي فيها أحكام فقهية أو قواعد فقهية أو أصولية.

مدرسة التفاسير الفقهية أو أحكام القرآن متنوعة بحسب المذاهب، فالحنفية لهم تفاسير، والشافعية لهم تفاسير فقهية يذكرون فيها أحكام القرآن علىٰ طريقتهم؛ يعني علىٰ طريقة مذهبهم الفقهي، الحنابلة كذلك، والمالكية كذلك.

فمثلا من تفاسير **الحنفية** في ذلك «أحكام القرآن» للجصاص.

ومن تفاسير **الشافعية** «أحكام القرآن» لإلكيا.

**وللمالكية** «أحكام القرآن» لابن العربي و«أحكام القرآن» للقرطبي.

**وللحنابلة** «أحكام القرآن» لعبد الرزاق الرسعني و«أحكام القرآن» لابن عادل الحنبلي.

---

(١) انتهىٰ الوجه الأول من الشريط.

فكلّ مذهب اعتنىٰ بالأحكام الفقهية علىٰ مذهبه وجعلها تفسيرا للقرآن.

هذه مجموع مدارس التفسير بالرأي، كلّ تفسير من هذه التفاسير له منهج، يعني له طريقة اعتمدها في تفسيره.

ولو عرضنا لتفسير واحد من هذه التفاسير سواء في مدرسة التفسير بالأثر أو مدرسة التفسير بالرأي لنبيّن شروطه وطريقته لاحتاج إلىٰ درس خاص في ساعة أو ساعتين لنبيّن شروط فلان في تفسيره، مثلا تفسير ابن جرير نحتاج فيه إلىٰ درسين أو ثلاثة، تفسير ابن كثير نحتاج فيه أيضا لبيان منهجه لكذا، أحكام القرآن للقرطبي نحتاج إلىٰ وقت فيها؛ لكن المقصود الإشارات التي بها يمكن أن تدخل هذا العلم الواسع -علم مناهج المفسرين-.

هذه المدارس ظَلَّت تمشي، وفي خِضَمِّها ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن القيم، شيخ الإسلام كان يفسر القرآن لكنه لم يؤلف تفسيرًا، والذي كتبه ووجدت في مجلدة مستقلة أنه كان يعتني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير بتفسير آيات أشكلت علىٰ المفسرين؛ يعني آيات كثر فيها الخلاف بين المفسرين ولم يتّضح الراجح فيها، فيجتهد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حلّ ما أشكل عليهم في تفسيرها.

وقد ندم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخر عمره علىٰ أنه لم يجعل النصيب الأوفر في عمره للتفسير؛ لأنّه بالتفسير يستطيع المصلح والمجدد ويستطيع الإمام والعالم أن يقرر ما يريد، يقرر مناهج السلف، يقرر التوحيد، يقرر العبادات، يقرب الناس إلىٰ ربهم، يُذِّكر بالآخرة يعظ، بالتفسير يستطيع أن يصل الناس في جميع مشاربهم، شيخ الإسلام وابن القيم لم يفسروا كل القرآن وإنما فسروا واعتنوا بآيات أشكلت وبما يهمّ تفسيره من آيات أو سور في التوحيد، مثل تفسير سورة الإخلاص، تفسير سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، تفسير المعوذتين وأشباه ذلك، آية الكرسي أو آيات أشكل تفسيرها.

إذن شيخ الإسلام وابن القيم تميّزت تفاسيرهم بشيئين:

**أولا**: أنهم اعتنوا بتفسير سور فيها التوحيد والعقيدة بعامة.

**[ثانيا]**: أو اعتنوا بتفسير آيات أشكل تفسيرها علىٰ العلماء من قبل.

ظلّت هذه المدارس تمشي وتزحف، والخلف يقلدون من قبلهم فيها، وهكذا إلىٰ أن وصلنا إلىٰ مشارف العصر الحديث، أنا سرت بكم تاريخيا مرورا بمدارس التفسير حتىٰ يكون عندك تصور إجمالي للتفاسير واتجاهات التفاسير منذ نشأة التفسير في زمن النبي ﷺ إلىٰ وقتنا الحاضر.

بدأ العصر الحديث، والعصر الحديث يحتاج إلىٰ ضابط، بداية العصر الحديث هذا متىٰ؟ فبالنظر إلىٰ اختلاف وجهة التفسير يمكن أن نقول: إنّ العصر الحديث يبدأ في التفسير ببداية القرن الرابع عشر يعني من ألف وثلاثمائة هجرية فما بعد؛ وذلك لأنّ التفاسير فيما قبل هذا التاريخ سارت علىٰ نمط التفسير قبل ذلك.

فمثلا في القرن الثالث عشر الهجري ظهر «تفسير الآلوسي» قد سار علىٰ نحو ما قبله، وظهر «تفسير الخطيب الشربيني» علىٰ نحو ما قبله، وظهر «تفسير صديق حسن خان» علىٰ طريقة ما قبله، وظهر تفسير الشوكاني «فتح القدير» علىٰ طريقة ما قبله؛ يعني أنه منذ ابتداء تميز التفاسير في مدرسة التفسير بالرأي



سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

علىٰ نحو ما ذكرنا لم يظهر اختلاف كثير في مدارس التفسير حتىٰ ابتدأنا في العصر الحديث.

العصر الحديث ظهرت تفاسير مختلفة ومتنوعة المشارب واجتهادات كثيرة في التفسير، وكان لذلك سبب، ولابد من معرفة السبب حتىٰ يُتصور لمَ صارت تلك التفاسير؟

لمّا جاءت الحملة الاستعمارية علىٰ البلاد الإسلامية وبخاصة حملة نابليون علىٰ مصر وصار فيها ما صار مِنْ ضرب لأصول العلوم الإسلامية، نشأت ناشئة طُلب منهم أن يذهبوا إلىٰ بلاد الغرب؛ أن يذهبوا إلىٰ فرنسا ليدرسوا فيها العلوم -الأدب أو علوم حديثة ما شابه ذلك -، وكان الأزهر إذْ ذاك يمانع أن يرسل أحد من أبناء المسلمين إلىٰ أوربا، فصار هناك اقتراح أن يذهب مع كل طائفة عالم من علماء الأزهر حتىٰ يشرف علىٰ أولئك الطلبة وحتىٰ يعلمهم ويحجزهم من الانحراف إن كان، فذهب في مقدمة من ذهب بعض علماء الأزهر -من غير تسمية-، وهؤلاء لما رجعوا مع التلامذة تأثروا بما عند الغرب، صار عندهم شيء من الإحراج، الغرب عنده كذا وكذا من التقدمات وبلاد المسلمين في ذلك الوقت في تأخر وعدم تطور مدني، فصاروا في إحراج من جهة أنّ سبب التأخر في ذلك الوقت عزي إلىٰ الدين، وسبب التأخر عزي إلىٰ اتباع الناس للكتب القديمة وللتفاسير القديمة والناس ظلّوا علىٰ ذلك المنحىٰ وهي التي أخرتهم عن التطور، فظهرت هناك أقوال كثيرة تشكك في الإسلام وتشكك في القرآن وتشكك في الدين وتشكك في السنّة إلىٰ غير ذلك، حتىٰ صار ذلك شائعا في الناس.

بعض ضعاف النفوس، في ضوء ما قلنا ظهرت فئات كثيرة من المسلمين تشككت في الدين؛ في القرآن في السنة وبسبب تلك البعثات وخروج مدارس الاعتناء باللغات الاعتناء باللغات الأجنبية والاعتناء بالآداب الغربية والاهتمام ببحوث المستشرقين إلىٰ غير ذلك.

مِن العلماء من نظر إلىٰ هذا الداء فوجد أنّ سبيل إرجاع المسلمين إلىٰ دينهم أن يُعتنىٰ بتفسير القرآن بتفسير عقلي يعظم القرآن في نفوس الناس حتىٰ لا يبعدوا عن الدين، وظهرت في هذا مدرسة محمد عبده أحد مشايخ الأزهر الكبار وأحد الذين اعتنوا بتفسير القرآن، ومن امتداد مدرسته محمد رشيد رضا الذي كتب «تفسير المنار» معتمدا في كثير منه علىٰ تفاسير شيخه محمد عبده.

هذا الوصف الذي ذكرنا أعقب ضعافا في نفس بعض العلماء جعلهم يحملون القرآن علىٰ ما عند الغرب من العلوم.

فمثلا الآيات التي فيها ذكر لبعض المعلومات الفلكية يجعلونها دليلا علىٰ صحة القرآن وأن القرآن سبق الغرب لذلك، وكذلك المعلومات الطبية أو المعلومات الغيبية وهكذا.

ففسروا القرآن بتفسير عقلي خرجوا فيه عن التفاسير السابقة وعن تفاسير السلف وعما يجوز لأجل أن لا يشككوا الناس في القرآن وأن يقبل الناس القرآن وأن يعظموا القرآن.

فأتىٰ وفسر الآيات التي فيها بعض الكلام علىٰ الأجنّة في ما عند الغرب في ذلك وبعض الآيات الغيبية في الطب مثلا أو في الفلك أو في حال المطر أو ما أشبه ذلك أو في العيون في الأرض أو الأشجار أو النبات أو الجبال إلىٰ غير ذلك بتفسيرات توافق ما عند الغرب من العلوم.

وانهال الناس علىٰ محمد عبده ويحضرون تفسيره؛ لأنه جعل تفسيره فيه الإصلاح وجعل فيه جدة

علىٰ ما كان عليه المفسرون من قبل، وضم إليه تلك التفاسير.

وانحرف في كثير منها إذْ جعل القرآن تبع لمكتشفات الغرب، ومن المعلوم أنّ تلك المكتشفات أو تلك النظريات تصلح في وقت وربما أتىٰ ما هو أفضل منها فأبطل تلك النظرية أو ما هو أعمق بحثا واستقراء فصارت الأولىٰ غير صحيحة، فحمل القرآن علىٰ النظريات العلمية وتفسير القرآن بالنظريات العلمية هذا لا يسوغ؛ لأنه حمل للقرآن الذي هو حق ثابت لا يتغير بشيء قد يتغير.

نعم إنّ القطعيَّ لا يناقض قطعيا، واليقيني لا يناقض اليقيني فالعلم اليقيني لا يمكن أن يأتي في القرآن شيء بخلافه، وكذلك العلم القطعي لا يمكن أن يأتي في القرآن شيئا بخلافه، لكن تلك النظريات من أجل الضعف حُملت عليها آيات من القرآن.

فنشأت في العصر الحديث أولىٰ مدارس التفسير وهي تفسير القرآن بطريقة عقلانية يُجمع فيها ما بين مكتشفات الغرب والمكتشفات العصرية وما بين تفاسير المتقدمين، فجعلوا خليطا واهتموا بالأشياء الحديثة، وظهر لذلك «تفسير طنطاوي جوهري» وتفسير كما ذكرنا محمد عبده وفي خضم ذلك أنكرت بعض الغيبيات وفُسر القرآن بتفاسير باطلة، وأنكرت أشياء ظاهرة وكان في ذلك شيء من الانحراف في التفسير.

هذا نوع من مدارس التفسير التي ظهرت في العصر الحديث وسبب ظهور هذا النوع من التفاسير.

**المدرسة الثانية من مدارس التفسير المعاصر**: هي مدرسة **تفسير القرآن علىٰ هامش المصحف**؛ وكان هذا ممنوعا في الزمن الأول أنْ يُجعل القرآن في هامش المصحف؛ لأنّ القرآن يجب أن يبقىٰ كما هو وألاّ يُدخل عليه، ولكن لما توسع العصر وصار الناس بحاجة إلي شيء يبين لهم معاني القرآن مع آي القرآن، فجعلوا تلك التفسيرات في هامش المصحف؛ يعني مع المصحف في شيء واحد، فصارت هناك تفاسير مختصرة طُبعت مع المصحف وهذا نوع انتشر، فصار هناك من اختصر مثلا «تفسير الطبري» وجعله في هامش المصحف في السنوات الأخيرة، ومنهم من ألف تفسيرا لنفسه وجعله علىٰ هامش المصحف، ومنهم من اختصر أو طول إلىٰ آخره بهذا الشكل، وهذا شيء جديد لم يسبق له مثيل في الزمن الأول.

**نوع ثالث من التفاسير** ظهرت في العصر الحديث: **التفاسير الدعوية**، وكان لظهورها سبب وهو أنه في هذا العصر ونعني به ما بعد سنة ألف وثلاثمائة هجرية مع ظهور الفساد وبعد الناس عن الدين وتسلط الاستعمار والغزو الثقافي الذي حصل للمسلمين وإبعادهم عن دينهم وعن القناعة بشرع الله جلّ وعلا، ظهرت هناك جماعات مختلفة في العالم الإسلامي -العربي وغير العربي- فيها الدعوة لإرجاع الناس إلىٰ الدين ولا شك أنّ الداعية يحتاج إلىٰ أن يكون اعتماده علىٰ القرآن، لهذا احتاجت تلك الدعوات إلىٰ أن يفسر بعض منهم القرآن، فاعتنىٰ بعض كبار بعض أصحاب تلك الدعوات بتفسير القرآن، وتلك التفاسير كان المفسر يفسر فيها مراعيا شباب الدعوة التي ينتمي إليها، فمثلا فسّر بعضهم التفسير من جهة تفسير علىٰ طريقة مثلا جماعة التبليغ، وبعضهم فسّر القرآن علىٰ طريقة جماعة الإخوان المسلمين، وبعضهم علىٰ طريقة جماعة النورستانيين مثلا أو جماعة النور في تركيا، وبعضهم فسر علىٰ طريقة العلماء؛ علماء جمعية العلماء أو رابطة العلماء في الجزائر، وهكذا في الباكستان والهند ظهرت مدارس

كتفاسير الجماعة الإسلامية تفسير أبي الأعلىٰ المودودي وغير ذلك.

هذه التفاسير فيها تفسير بالرأي بجعل الواقع في التفسير؛ يعني نظروا في التفسير من جهة التأثير الدعوي في الناس، ففسروا القرآن وهم ينظرون إلىٰ الواقع لكي يؤثروا علىٰ الناس من طريق القرآن.

وهذه الطريقة لا شك أنه لابد أن يخطئ أصحابُها في بعض الأشياء؛ لأن من غلب علي الواقع في النظر إلىٰ القرآن لابد أن يحيد عن الصواب في بعض التفسير؛ لأن القرآن ليس لزمن دون زمن بل هو للأزمنة جميعا لهذا ظهر من خلال هذه التفاسير غرس الجوانب الدعوية في تلك الجماعات المختلفة في تفاسير أصحابها.

هذه مدرسة، ومن أمثلة تفاسير هذه المدرسة تفسير أبي الأعلىٰ المودودي «ترجمان القرآن»، وتفسير «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب وأشباه هذه التفاسير، و«الأساس في التفسير» لسعيد حوىٰ، وأشباه تلك التفاسير.

**من التفاسير أيضا التي ظهرت في العصر الحديث** تفاسير المعاني للغات أخر وهي المسماة **ترجمات القرآن** وهي تراجم لمعاني القرآن فظهر في أغلب اللغات الحية في العالم تفسير، وهنا يقولون تفسير للقرآن وهذا غلط؛ لأن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين لا يمكن لأحد أن يترجمه لأي لغة كانت؛ ولكن الصواب أنها تراجم لتفسير القرآن فيأتي هذا الذي ترجم بنظر إلىٰ الآية ويفهم تفسيرها بمراجعة كتب التفسير ثم يترجم ما فهمه من التفسير، وإلا فإنّ القرآن لا يمكن أن يترجم إلىٰ أي لغة كانت؛ لأنّ لغة العرب شريفة وفوق كلّ اللغات، فمثلا خذ آية لا يمكن أن [تترجم] لأي لغة من اللغات مثلا في قول الله جلّ وعلا في سورة البقرة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧]، فاللباس كيف [يترجم] باللغات الأخر؟ اللغة العربية فيها سعة لأصول الكلمات وكليات المعاني، ولهذا إذا أتت الترجمة فلا بدّ أنّ المترجم يترجم بالنظر إلىٰ تفسير الآية، فكل ترجمة للقرآن تعدّ تفسيرا.

ولهذا ظهرت في التراجم المختلفة تأثر تلك الترجمة بمذهب صاحبها، فإذا كان صاحبها قاديانيا أثر في ترجمته، هناك ملاحظات علىٰ بعض الترجمات من جهة مذهب صاحبها، فإذا أتىٰ لنعيم الجنة و[جحيم] النار فسرها علىٰ مشربه، إذا أتىٰ إلىٰ الرقم تسعة عشر (١٩) عظَّم ذلك، وإذا أتىٰ لبعض الغيبيات فسرها علىٰ طريقته ونحلته، وبعضها تراجم لمعاني القرآن سلفية طيبة لبعض اللغات الحية، وبعضها تفاسير أشعرية، وبعضها تفاسير ماتريدية، وبعضها تفاسير دعوية.

إذن تراجم معاني القرآن التي تراها هي شيء مُحدث في هذا العصر وتنتمي إلىٰ مدرسة التفسير بالرأي، ويمكن للناظر فيه أن يجعله تفسيرا، وأن يدرجه ضمن أي مدرسة من مدارس التفسير التي ذكرنا.

من الأشياء التي بقيت في هذا العصر المدارس السالفة للتفسير فامتدت مثلا:

تفسير القرآن بالنظر إلىٰ الأحكام الفقهية وهذا ظهرت له عدة تفاسير مثل تفسير «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» فإنّه اعتنىٰ بالفقهيات جدا.

وتفسير القرآن باللغويات؛ بالبلاغة أو بالنحو له عدّة تفاسير مثل تفسير «التحرير والتنوير» للطّاهر بن

عاشور.

والتفاسير الأثرية التي اعتمد فيها صاحبها علىٰ الأثر مثل تفسير الشيخ عبد الرَّحمٰن بن سعدي وغيره.

ومنها تفاسير نشأت -عقدية مختلفة-؛ تفاسير للرافضة، وتفاسير الإباضية، تفاسير للخوارج إلىٰ غير ذلك؛ يعني أنّ كل التفاسير القديمة جاءتنا من جديد.

فهذا العصر جاء فيه تفاسير جديدة علىٰ غير التفاسير القديمة، ولهذا ينبغي لطالب العلم المهتم بالقرآن إذا أراد أن يراجع تفسيرا أو أن يجعل في بيته تفسيرا لكتاب الله جلّ وعلا أن يحرص أتمّ الحرص علىٰ أن يسأل أهل العلم هل هذا التفسير تفسير مأمون أم لا؛ لأنّ من التفاسير ما لا يُحمد، وربما أضل من ينظر فيه، فلا بد أن تسأل، تأخذ تفسيرا منحرفا في العقيدة تفسير للمعتزلة أو تفسير للأشاعرة مثل «تفسير الفخر الرازي» تنظر فيه ربما هذا حصلت عند شبه كثيرة في التفسير.

التفاسير كما رأيت كثيرة جدا تبلغ مئات من التفاسير وأعدادا كبيرة، هذا من جهة التفاسير التي فسرت القرآن كاملا.

أما من فسر سورة من القرآن فسر جزءًا من القرآن فهذا ليس حديثنا فيه، مع أنه يمكن أن يدرج ضمن مدرسة من المدارس التي ذكرنا.

إذا تبين ذلك فالترجيح آخر المطاف، الترجيح بين المدارس المختلفة في التفسير التي ذكرنا لا شك أنّ الراجح والمفضل من التفاسير المختلفة التي كثُرت في الأمة جدا التفاسير التي تعتمد علىٰ أقوال السلف وعلىٰ أقوال الصحابة والتابعين وهي التفاسير المنتمية إلىٰ مدرسة التفسير بالأثر.

ومدرسة التفسير بالرأي مفيدة لأنّ فيها استنباط وفيها لغويات وفيها نكت ولطائف، والنكت هي الفوائد المهمة، لكن لا تؤمن؛ لأنّ أكثر من تعاطىٰ التفسير بالاجتهاد والاستنباط -التفسير بالرأي- عنده انحراف في العقيدة أو عنده انحراف في السنة، ولهذا لابد من الانتقاء، وأقل التفاسير في الاجتهاد والاستنباط بالرأي خطأً حتىٰ تكون أخطاؤه معدودة، تفسير الشوكاني الذي سماه «**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**» الرواية يعني بها التفسير بالأثر، والدراية يعني بها التفسير باللغة والنّحو والاستنباط وبتفسير القرآن بالقرآن والقرآن بأصول الفقه إلىٰ غير ذلك من المباحث، أسلم التفاسير، فمن احتاج إذن إلىٰ أن ينظر في تفسير من التفاسير بالرأي فليكن تفسير الشوكاني «فتح القدير»، يتلوه وهو أصعب منه تفسير أبي حيان الأندلسي «البحر المحيط» فإنه في العقيدة يغلب عليه السلامة، وأما غيرها فيها انحرافات كثيرة مع كثرة الفوائد التي فيها؛ لكن لا تصلح إلا لطالب علم متمكن يميّز الطيب من التفسير من الخبيث فيه.

هذا عرض موجز مختصر يمكن أن تعتبره مدخلا في معرفة مناهج المفسرين علىٰ جهة التفصيل، ولا شك أنّ هذا العلم علم مهم وواسع ولا يمكن طرقه في محاضرة أو درس أو اثنين أو عشرة أو عشرين، لابد له من سعّة في الوقت وأيضا استعدادات عند المتلقين؛ لأننا إذا دخلنا في التفاسير وذكرنا مميزاتها ومناهجها لابد من التفصيل والتعرض لعلوم متنوعة.

تلحظ مما ذكرت أنه عرض مختصر من بداية نشأة التفسير إلىٰ وقتكَ الحاضر.

أسأل الله جلّ وعلا أن ينفعك وإياي بما ذكرتُ وأن يجعلنا من المتبصرين في العلم الجادين فيه، وأنْ يُنعم علينا بالإقبال علىٰ القرآن، وأن يتفضّل علينا بفهم تفسيره وتدبر آياته.

وأسأل الله جلّ وعلا لي ولكم العفو والعافية، والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

**سؤال (١)**: أحد الإخوة أراد تنبيه علىٰ تفسير ينسب لابن عباس مطبوع اسمه «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس».

الجواب: وهذا تفسير لفيروز آبادي المشهور صاحب القاموس، ونقل فيه تفاسير ابن عباس المنقولة بطريق واحد، وهذا الطريق طريق موضوع مكذوب؛ لأنه من طريق السُّدِّي الصغير -وهو أحد المتهمين بالوضع والكذب- عن الكلبي -وهو أيضا أحد المتهمين بالكذب-، وإذا كان كذلك فنقول: تفسير «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» هو أوهىٰ التفاسير عن ابن عباس، ابن عباس أصح الطرق عنه في التفسير صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وأوهىٰ الطرق عنه في التفسير هذا الطريق وهو ما روي في هذا الكتاب الذي هو من طريق بشر بن مروان السُّدِّي الصغير عن الكلبي إلىٰ آخره.

فإذن تنوير المقباس موضوع مكذوب لا يجوز أن يُنظر فيه علىٰ أنه من تفاسير ابن عباس رضي الله عنهما، وإنما هو ملفق، وفيه بدع، وفيه أقوال مخترعة، وفيه مصائب عظيمة لا يجوز النظر فيه إلا لمن يعرف حاله من أهل العلم.

**سؤال (٢)**: يوجد في كثير من كتب علوم القرآن وأصول التفسير أن القرآن نزل علىٰ ثلاث مراحل:

الأولىٰ: الكتابة في اللوح المحفوظ.

والثاني: من اللوح المحفوظ إلىٰ بيت العزة في سماء الدنيا.

والثالث: من السماء الدنيا علىٰ النبي ﷺ، فما صحة هذا القول وهل يوافق قول الأشاعرة؟ أفيدونا جزاكم الله خيرا.

**الجواب**: هذا موجود في كتب علوم القرآن، وأظن الذي يهم السائل هو أنّ القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلىٰ سماء الدنيا؛ إلىٰ بيت العزة في السماء الدنيا، وهذا القدْر مروي عن ابن عباس في إسناد قوي وذلك عند تفسير قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[القدر]، وعند قوله جل وعلا في أول سورة الدخان: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقال ابن عباس: نزل به جبريل إلىٰ بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل مفرقا بعدُ -أو قال ثم نزل منجما بعدُ-.

وهذا القول صحيح عن ابن عباس كما ذكرنا، ويُحمل علىٰ توجيه واضح لا إشكال فيه، وذلك أن المتقرّر عند أهل السنة والجماعة أنّ القرآن سمعه جبريل من الرب جل وعلا فبلّغ ما سمع للنبي ﷺ، فالله جل وعلا يتكلم بالوحي في السماء فيسمعه جبريل فينزل بالقرآن للنبي ﷺ، وهذا في مرتبة الكلام، وأما المرتبة الثانية -فليست الثانية من جهة الدرجة لكن المرتبة الأخرىٰ أو النوع الآخر- هو الكتابة؛ القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال جل وعلا: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج]، ووجوده في اللوح المحفوظ مكتوب؛ لأن اللوح المحفوظ محل الكتابة، فالله جل جلاله كتب القرآن في اللوح المحفوظ قبل أن يتكلم به حين بعث محمد ﷺ نبيا ورسولا.

وهذا الإكرام للقرآن بجعْله في اللوح المحفوظ في هذا النوع وهو النوع الكتابي هو الذي أُنزل إلىٰ بيت العزة إلىٰ سماء الدنيا تشريفا لسماء الدنيا التي تظل الأرض، وليس معنىٰ إنزال القرآن إلىٰ بيت



سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

العزة -علىٰ كلام ابن عباس- أنّ جبريل يأخذ القرآن مكتوبا من بيت العزة يقرؤه فيه ثم ينزل به إلىٰ النبي ﷺ.

فإذن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا المكتوب في اللوح المحفوظ أنزله الله جل وعلا في ليلة القدر أوّل الإنزال علىٰ النبي ﷺ إلىٰ بيت العزة في سماء الدنيا، هذا علىٰ قول ابن عباس .

وهناك عدد من أهل العلم يقول: هذا مما تفرّد به ابن عباس، وأنه لم يأتِ عن أحد من الصحابة؛ بل ولم يأتِ عن النبي ﷺ أنّ ثمّ بيتا في السماء يقال له: بيت العزة فيه القرآن، وإنما الذي في الكتاب والسنة أن القرآن في اللوح المحفوظ مكتوبا تكريما له.

فجبريل عليه السلام ينزل بالقرآن مسموعا من الرب جل جلاله إلىٰ النبي ﷺ فيُسمعه القرآن، فالكلام كلام الرب جل وعلا وجبريل مبلِّغ والنبي ﷺ مبلِّغ؛ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾[الشورىٰ:٤٨].

فإذن هذا القول منهم مما كتب في كتب علوم القرآن يحتاج إلىٰ هذا الإيضاح، ومَن قال ممن صنف في علوم القرآن: إن جبريل يأخذه من بيت العزة فينزل به علىٰ النبي ﷺ أو يأخذه من اللوح المحفوظ فينزل به علىٰ النبي ﷺ فهذه من أقوال الأشاعرة في المسألة.

فإذن هذا القول مروي عن ابن عباس بإسناد قوي قد صححه بعض أهل العلم، وتوجيهه ما ذكرنا، وهو موافق لكلام السلف في القرآن وفي كلام الله جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته.

سؤال (٣): فضيلة الشيخ بعض الآيات فسرها الصحابة والسلف بتفسير؛ ولكن في العصر الحديث قد يتضح بعد الاكتشافات الحديثة تفسيرا آخر لها، كقوله تعالىٰ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾[النور:٤٠] لقد اكتشف حديثا وجود طبقات من هٰذه الظلمات في قاعه البحر وغير ذلك، السؤال: هل نتبع ما جاء عن الصحابة والسلف أم التفسير الحديث المبني علىٰ اكتشاف؟ أفيدونا في ذلك وجزاكم الله خيرا.

**الجواب**: العلم بالقرآن وبتفسيره لابد أن يكون محفوظًا عند الصحابة، ولا يمكن أن يعتقد في الصحابة أنهم يجمعون علىٰ تفسير آية ويكون التفسير غلطًا؛ لأن هذا القول معناه أن العلم الصحيح يحجب عن خير هذه الأمة ويعطىٰ من سواه، وهذا باطل قطعا ولا يعتقده أحد يعرف قدر الصحابة رضوان الله عليهم.

في مثل ما ذكر السائل لا يجمع الصحابة علىٰ تفسير، وإنما يختلفون فيه، فإذا اختلف الصحابة في تفسير آية فلابد أن يكون الصواب مع بعضهم؛ لأن العلم الصحيح لابد أن يكون عندهم إما بإجماع منهم أو عند بعضهم؛ لأنهم قد يختلفون في التفسير كما يختلفون في الفقه كما يختلفون في غير ذلك من العلوم، فإذا اختلف الصحابة فيؤخذ القول الأصح من ذلك.

والمكتشفات الحديثة كما ذكرنا تنقسم إلىٰ قسمين:

قسم منها مظنون؛ نظريات مبنية علىٰ استقراء ناقص أو علىٰ تجارب في بعض المكتشفات السابقة المعروفة، وهذه لا يجوز -لأنها مظنونة- لا يجوز أن يحمل القرآن عليها، ولو كان عند الناس اليوم ليس ثَم إلا هي من العلم؛ لأنه إذا كان سبيلها الظن؛ والظن معروف كيف يحكم علىٰ الشيء بالظن؟ أن يكون البحث ناقصا، أو أن يكون عن استقراء ناقص، أو أن يكون عن تجارب غير كلية إلىٰ آخر ذلك، مثل

بعض التجارب الطبية الأولىٰ التي كانت من نحو مائة سنة والآن ظهر غيرها، مثل بعض النظر للمياه والجبال التي كان فيه ظن قبل مائة سنة والآن اختلف الوضع إلىٰ أشباه من ذلك، النظريات تتجدد.

والقسم الثاني ما كان من النظريات يقينيا قطعيا؛ يقيني قطعي هو يتجاوز النظرية ويصبح علم، مثاله أن تظهر صورة واضحة ويصور الشيء ويعرف به، أو أن تكون دراسة دقيقة استقراء تام لا يقبل الجدل، البرهان كامل لا نقص فيه، فهذا إذا كان قطعيا وحقا فإن القرآن لا يناقضه البتة؛ لأنه كلام الله جل جلاله وهو الذي خلق الخلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك].

فإذن القطعي لا يناقض قطعيا ولا يضاد قطعيا، واليقيني لا يناقض يقينيا ولا يضاد يقينيا، وإنما إذا ظهر هنا عدم الاجتماع في ذهن البعض، فالحق هو في القرآن، وغيره فهو عرضة لأن يكون صوابا أو أن يكون خطأ، فإن كان مظنونا فإننا لا نحمل آيات القرآن عليه لأن القرآن حق قطعي، إذا كان قطعي الدلالة علىٰ المذكور، وتلك النظريات مظنونة، وإن كانت تلك النظريات يقينية فلابد أن تكون الآية التي تشمل تلك النظرية أن تكون فيها ذلك المعنىٰ دون مناقضة.

وهذا هو الذي غلط فيه البعض فأدرج المسألة وجعلها بابا واحدا؛ كل ما أتىٰ من النظريات العلمية حمل القرآن عليه، وهذا غلط فلابد من تقسيم العلوم الحديثة إلىٰ شيء قطعي، والقطعي لا يناقض قطعيا؛ لأن القرآن حق من عند الله جل وعلا مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة، وإذا كان مظنونا فلابد من التوقف في المظنون هذا وإبقاء القرآن علىٰ ظاهر دلالته حتىٰ يظهر شيء يمكن أن يُفهم القرآن عليه.

خُذ مثلا في تفاسير الصحابة أجمع العلماء علىٰ أنّ الأرض كرة وأنها مسلوبة من الجانبين قليلا - ليست كرة مستوية القطر من جميع الجهات-، أجمع العلماء والمفسرون علىٰ ذلك، وحكىٰ الإجماع علىٰ هذا ابن المنادي من الشافعية وابن حزم من الظاهرية وجماعة من أهل العلم وقرره شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة، أخذوا ذلك من قول الله جل وعلا: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥]، في سورة الزمر، هذا التكوير؛ تكوير الليل علىٰ النهار والنهار علىٰ الليل لا يمكن أن يتصور إلا أن تكون الأرض كرة؛ لأن تكوير الليل معناه أنه لا يأتي لحظة ينقضي منها ليل إلا وبعدها نهار؛ فهذا يعقب هذا بتوالٍ بلفظ التكوير، فلهذا نص من نص من الصحابة ومن بعدهم علىٰ أن الأرض لها شكل البيضة أو نحو ذلك.

مثلا في قول الله جل وعلا: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] لم تُرَ الأفلاك في وقت الصحابة وذهبوا إليها وعرفوا كيف حركة هذه وهذه، وإنما فسّروها من جهة الاجتهاد بمعرفتهم للقرآن وللغة فقال ابن عباس وغيره عند هذه الآية ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: في فلْكة كفلْكة المغزل. وأنت لو لاحظت المغزل يكون عمود، وهو ما ذكر في النظريات الحديثة الصحيحة أنه المحور الذي تدور عليه الأفلاك، قال جل وعلا ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ففيها استباحة، وأن الفلْكة تلك فلْكة المغزل، والمغزل إذا نظرت إلىٰ حركته ليست حركة رتيبة متساوية القطر بل يزيد ويرجع، وهذه حركة فعلا الأفلاك إلىٰ آخره.

---

(١) الأنبياء:٣٣، يس:٤٠.



سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

المقصود أنه إذا اجتمع العلم اليقيني بالعلوم الحديثة فإنّ القرآن هو الحق ويشرف العلم أن يكون تبعا للقرآن؛ لأن القرآن من عند الله جل وعلا؛ لأنه يكون معنىٰ ذلك أن البشر وصلوا إلىٰ استنتاج صحيح.

وأما إذا كان ذلك مظنونا فإنه لا يجوز حمل القرآن علىٰ مظنون؛ لأن القرآن يقيني قطعي كلام الملك الحق الذي يعلم من خلق، والبشر فيما يصلون إليه معرضون للصواب وللخطأ.

وأسأل الله جل وعلا أن يجزيكم خيرا علىٰ الحضور وعلىٰ حسن الاستماع وأن يجعلنا من المتفقهين في دينه، وأن نكون ممن لا يخوض في أي علم من العلوم الشرعية إلا بعلم ورأي ..